جلالة الفـــــاروق
ولويس الرابع عشر

للدكتور محمد غلاب

الآن ، وبعد أن تكسرت على صخرة أحداث المفاوضات موجة التأثر التي أثارها في النفوس التجاء ملك إيطاليا المتجرد من عرشه إلى مصر ، فإننا نستطيع أن نرسم في إيجاز تلك العاطفة التي أحسسنا بها عند ما طالعنا في الصحف وصف تلك الحفاوة الملكية الرائعة التي استقبل بها عاهل أرض الكنانة ذلك الملك المبعد عن بلاده . ولقد كانت في طليعة تلك الأحاسيس التي شعرنا بها حين قرأنا هـذا النبأ عاطفة النشوة الناجمة عن الإحساس بأن مصر قد بدأت تسترد عزتها الدائرة ، وتستعيد عظمتها الغابرة ، وأن أشعة هذا الأمل العذب قد أخذت تتمثل في استعداد وادي النيل لإيواء الملوك اللاجئين والأمراء المبعدين ، ولم لا ؟ ألم يكن من أبرز مفاخر فرنسا إلى هذه السنين الأخيرة أنها قبلة اللاجئين ، وغاية المهاجرين ، ولا سيما الملوك والأمراء الذين لأمر ما تعذر عليهم الثواء في بلادهم . ولا جرم أن في هذه الخاصية من خصائص الدول معنى من أبهى معاني الرفعة والسمو ، لأنه يلطف آلام فريق من أولئك التعساء ، ويحيي الأمل في نفوس فريق آخر منهم ، ويشعر فريقاً ثالثاً بأن الإنسانية لم تتحول كلها إلى وحوش ضارية ، لأن الإكرام العملي والحفاوة الواقعية يتركان في النفوس من مخمود الأثر ما تعجز عن تأديته العبارات المسولة التي لا تكلف المتفيهقين بها كثيراً ولا قليلا . ونحن إذا نظرنا إلى هذه الظاهرة نظرة عميقة ألفينا أن الفضل الأول فيها عائد بالذات إلى حضرة صاحب الجلالة مليكنا المفدى الذي عرف كيف يكشف أسرار عظمة الدولة ، ثم يطبعها بطابع خاص تتحقق فيه الدقة والرقة والمثالية إلى جانب ثماره الأساسية ، وهي المجد والفخار والخلود . وكيف لا تكون هذه السماحة النادرة ، وتلك البشاشة النبيلة ، وذلك الإكرام الكامل من الأمور المثالية في هـذا العصر الذي كادت الإنسانية فيه — مع الأسف الشديد — تفقد كل معالمها ، والذي أصبح فيه الشغل الشاغل لأكثر الدول هو التفكير في وسائل ونتائج الاستيلاء على حقوق الغير واغتصاب ممتلكاتهم الشرعية تارة في مجون واضح وصفاقة بغيضة ، وأخرى تحت ستار الدفاع عنهم أو تحسين حالاتهم الاجتماعية .

وفوق ذلك ، فإن هذه الحادثة قد أعادت إلى مخيلتي ذكريات تلك المحامد النبيلة التي انفرد بها الشرق ، وهي البشاشة التقليدية والسخاء الموروث وإكرام الضيف دون أية علة أخرى غير الالتذاذ النفساني بتحقيق العمل المجيد وما إلى ذلك من العواطف العالية التي أوشكت واقعية عصرنا الحاضر أن تسحب عليها أذيال النسيان .

أسند بعض الكتاب ذلك المظهر الملكي الجليل الذي استقبل به مليكنا ضيفه اللاجيء الأخير إلى فضيلة عرفان الجميل من جانب جلالته نحو أسرة سافوا ، وتلك بلا ريب عاطفة جليلة جديرة بأن تدفع النفوس الملكية أكثر من غيرها إلى رد خير الصنيع إلى أهله ، ولكن أليس تعليل أولئك الكتاب هذا المظهر الفاتن بتلك العاطفة وحدها يخفي كثيراً من جوانبه الأخرى الخلابة وعناصره الجوهرية التي نحن على يقين من أنها قامت بدور أساسي في تصرف جلالة مولانا الملك وبواعثه ؟ ومن هذه العناصر الأولية التي غفل عنها أولئك الكتاب تلك الدوافع التي فطرت عليها النفوس النبيلة والطباع الكريمة ، والتي لا تزال تنعش ذوى المحامد العريقة وتدفعهم إلى القيام بالأفعال الخليقة بالخلود في ذاكرة التاريخ تتخذ منها الكافة نبراسها في دياجير الحياة ، وتجد فيها الخاصة دروسا في العظمة ، والتي تنشيء لدى الشعوب ملكة تذوق المجد المجرد من النفعية ، وهل يحسب أولئك الذين طغت عليهم روح الواقعية أنه من الممكن أن تستغني الإنسانية عن هذه الأحاسيس السامية ، وأن تكتفي بتلك المدنية المادية مهما بلغت أعلى آواج السطوع والإخصاب ؟

نحن لا نحسب أن الإنسانية مقصورة على هذه الروح الواقعية منحصرة في هذه الدائرة العملية الضيقة ، وإلا فما هو سر جاذبية تلك الصور التاريخية الساحرة التي فتن جمالها القلوب ، وخلب سموها النفوس ، والتي قدمت إلى أهل الحياة العملية فريقا آخر

من البشرية ضحوا براحتهم وهدوئهم ، بل بحياتهم أحيانا فى سبيل الشهامة والمروءة الثالثين . وهكذا لم أطالع فى الصحف نبأ تلك الحفاوة الرائعة المؤثرة التى قام بها جلالة مليكنا المفدى نحو ملك عريق مهاجر من وطنه حتى أحسست بذكريات تنبثق من غياهب التاريخ وتنقذف إلى ذاكرتى ، وسرعان ما أحسست بتوثق وجه الشبه بين تلك الأحداث التى طوت العصور ممثليها ولم تقو على محوها من سجل الزمن ، وبين ذلك الحادث الكريم الرفيع . ولقد كان فى طليعة هذه الذكريات الخالدة حفاوة لويس الرابع عشر ملك فرنسا العظيم بجاك الثانى ملك انجلترا حين قلب له الدهر ظهر المجن .

ومجمل ذلك أنه لم تكد سنة ١٦٨٨ تشرف على الانتهاء حتى كانت الثورة الانجليزية الثانية قد بلغت أقصى حدودها وأعلن الثوار — فى مقدمة ما عابوه على مليكهم جاك استوارت — أنه كاثوليكى ، وأن الأمة بروتستانتية ، فلاينبغى أن يجلس على عرشها من اختلف دينه مع دينها ، ثم دعوا للتملك عليهم الأمير الهولاندى جيوم الثالث . وعلى أثر نزول هذه الكارثة بالأسرة المالكة ، كان ذلك الملك المنكوب بين عاملين متعارضين : أحدهما يدفعه إلى الالتجاء إلى فرنسا والاحتماء بعاهلها الأعظم والعيش فى كنفه المنيع ، وهو عامل الصلة الأسرية التى كانت تربطه بالبيت المالك فيها . والعامل الآخر هو ذلك العداء الذى كان مستحكما بين دولتيهما فى ذلك الحين ، إذ أن شارل الثانى والد هذا الملك التعس كان قد أعلن الحرب على فرنسا فى سنة ١٦٧٨ أى قبل هذه الصدمة بنحو عشرة أعوام . وأكثر من هذا أن شارل الثانى نفسه كان يحنق على فرنسا حنقا خاصا ويحسدها على أسطولها ، وأنه سجل هذا الشعور الانجليزى التقليدى البغيض الذى يجرى فى نفوس أفراد هذا الشعب جريان الدماء فى أوردتهم وصوره فى هذه العبارات التالية :

« إن كبرى العقبات التى تعترض سبيل الحلف الفرنسى هى تلك العناية العظمى التى يبذلها الفرنسيون الآن لينشئوا لهم كيانا تجاريا ، وليكونوا قوة بحرية تفرض إرادتها ؛ إذ أن كل خطوة تخطوها فرنسا فى هذه السبيل ، تخلد الحسد بين هاتين الدولتين » .

بيد أن ذلك الملك السيىء الحظ بعد أن وازن بين الحالتين رجح الالتجاء إلى فرنسا لثقته بنبل مليكها وكرم خلقه ، وسمو طبعه . وفى أواخر ديسمبر سنة ١٦٨٨ نجحت ملكة انجلترا وولدها ولى العهد فى اجتياز المانش إلى كاليه بفضل تلك المحاولة الجريئة التى قام بها أحد النبلاء الفرنسيين ، وهو دوق دى لوزان مدفوعا إلى ذلك بالشهامة البريئة التى تتغلغل فى فطرته النقية من العلل النفسية . ولما كان الملك قد وعدها أن يلحق بها فى كاليه فقد انتظرته هناك بعض الوقت ، ولكن لويس الرابع عشر لم يلبث أن بعث إليها بموكب فخم يحف بها إلى باريس لتنتظر رفيق حياتها فى العاصمة مكرمة معززة . وفى اليوم السادس من يناير سنة ١٦٨٩ وصلت الملكة وولدها إلى ضواحى باريس ، فلم يكن من ملك فرنسا — وهو ذلك الملك الأريستوقراطى النزعة — إلا أن انتقل برافقه حاشيته لاستقبالها ، وعند ما لمح المركبة الملكية ترجل واتجه إليها ، فعانق ولى العهد فى حنان أبوى ثم هرول إلى الملكة ، وبعد أن حياها تحية رقيقة مفعمة بالاحترام والاكبار ، أصعدها إلى مركبته وأجلسها إلى يمينه كما تقتضى أرقى مراتب الذوق واللياقة . ولما وصلوا إلى العاصمة وضع ذلك الملك الكريم تحت تصرف ضيوفه قصر سان جيرمان ، وهو ثانى قصر فى الدولة بعد قصر ڤرساى ، ثم بذل كل ما فى وسعه لإسعادهما وللحيلولة بينهما وبين الشعور بغيبة أدنى الكمالات . وفى أثناء رحلة الملكة إلى باريس ظفر زوجها بعد عناء شديد بنعمة الوصول إلى الساحل الفرنسى .

وفى اليوم السابع من يناير وصل بدوره إلى ضاحية سان جيرمان حيث كان لويس الرابع عشر فى انتظاره . وعند ما أعلن قدومه أسرع لاستقباله وتعانقا عناقا مؤثرا أحس أثناءه ملك انجلترا بالحقيقة المرة وقدر منزلته الراهنة تجاه أعظم ملوك الدنيا فى عصره ، فانحنى حتى ركبتى لويس الرابع عشر ، ولكن هذا الأخير تأثر كثيرا وأبى أن يعامله إلا معاملة الند للند ، وبعد أن تسارّا مليا اقتاده إلى حيث تقيم قرينته وولده ثم ودعه قائلا له : « هذا هو منزلك تستقبلنى فيه كما أستقبلك فى فرساى » . ولم يكتف ذلك الملك الجليل بهذه البشاشة الفائقة ، وإنما خصص الأيام التى تلت يوم قدوم ضيفه الكبير للاحتفالات بمقدمه